الموقف من المناهج النقدية الغربية

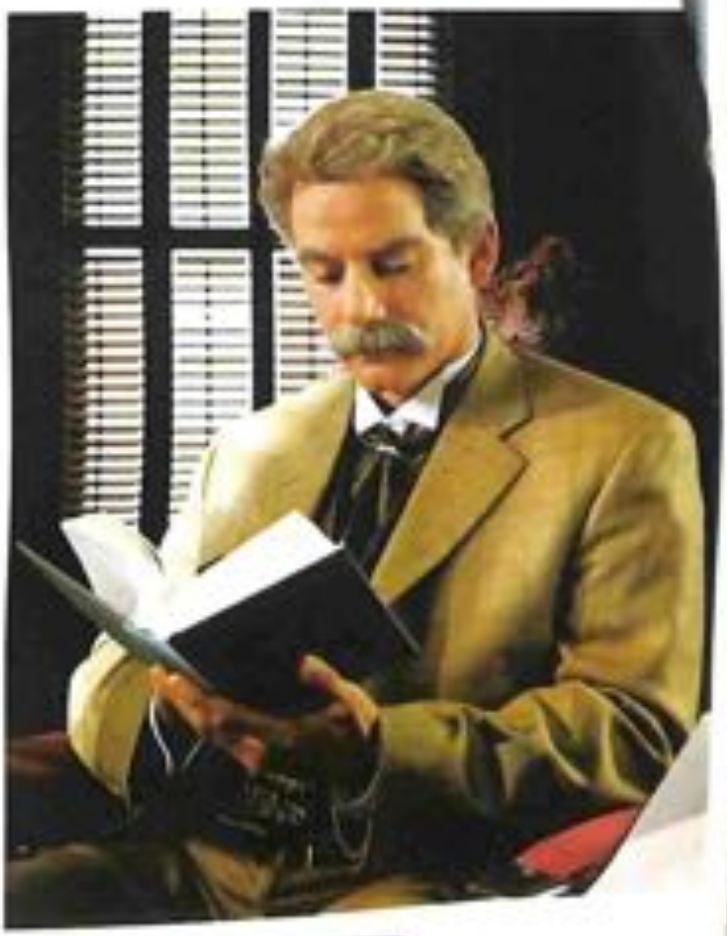

إن قضية المنهج تعد اليوم القضية الأولى في جميع حقول المعرفة إذ ترتبط نتائج كل علم بالمنهجية المتبعة فيه. ولذلك فإننا لا نكاد نجد في عصرنا الحالي علما دون منهج. وبذلك احتل المنهج كل هذه الأهمية. وغدا هاجسا مؤرقا لكل الباحثين. وتطرح حوله كثير من الأسئلة التي ربما لا يتسع المجال لذكرها سواء على صعيد التنظير أو على مستوى الممارسة والتطبيق أو على مستوى المصطلح. خاصة في ظل هذا الانفجار النقدي الكبير. وتعدد بل وتشعب المناهج ثم عدم استقرارها وتحولها السريع. مما يجعلنا نقر بأن القرن العشرين خلافا للقرون السابقة تميز بأنه عصر التحليل في حقول الفكر والمعرفة، وعصر اجتراح المنهجيات للوصف والنظر في منظومة الأفكار المتداخلة. فظهرت المناهج النقدية الحديثة التي دشنها الشكلانيون الروس (١٩١٥-١٩٣٠)، ودي سوسير مرورا بكشوف النظرية البنيوية التي تقوم على تطبيق المنهج اللغوي في التحليل. ورفض المؤثرات الخارجية. وصولا إلى السيميائيات التي حررت الأدب والنص الأدبي من سطوة البنيوية. وانتهاء بالتفكيك الذي طور السيميائية إلى آفاق جديدة في البحث عما هو مغيب في الخطاب الأدبي.

د. عبد الحميد عمر هيمة - تونس

أما في نقدنا العربي فقد بقيت مسألة المنهج غير واضحة وغير مستقرة في الممارسة النقدية لمعظم النقاد العرب في القرن الماضي. وهذا يجعلنا نردد مع (د.فاضل ثامر) بأن وعي الحركة النقدية العربية بإشكالية المنهج لا يمتلك تاريخا طويلا. وإنما يبدأ ...بعد جهود حسين المرصفي مرورا بمحمد مندور وعز الدين إسماعيل وصولا إلى الجيل الجديد من النقاد. ثم أخذت هذه الرؤية المنهجية تتطور بفضل التأثر المباشر بالمناهج والنظريات النقدية الغربية كالبنيوية، والسيميائية، والتفكيكية، ونظرية القراءة.

وعلى العموم فإنه لا يمكن القول بأن الحركة النقدية العربية الجديدة قد نجحت في تقديم إجابات متكاملة وشاملة حول قضايا المنهج النقدي، فما زال الكثير من الأسئلة معلقة كما أن بعض الممارسات تشكو من فقر منهجي. ومن تحول بعض المناهج إلى علم أو فلسفة أو أيديولوجيا. ولذا فإن فلق مرحلة الصيرورة النقدية الحديثة لم يحسم بعد. وليس من الضروري أن يحسم بسهولة. فالناقد العربي يجد نفسه على الدوام أمام مغازات واختبارات جديدة تتطلب منه أحيانا تعديل جوانب من رؤاه النقدية وقناعاته الأساسية.

وهذا يفرض علينا -كما ترى الناقدة بمنى العيد- العمل على تأسيس فكر علمي في ثقافتنا قادر على الإسهام في إنتاج مناهج علمية: لأن طرح النموذج الغربي وصفة جاهزة أمر غير مقبول في هذا الزمن الذي يتميز بالحوار الخصب بين الحضارات والثقافات فضلا عن أن عدم التقيد بحرفية المنهج الواحد والإفادة من المناهج الأخرى بمنحه الحيوية والثراء، والتطور المستمر.

يجب إذن أن نؤمن بأهمية تعددية المناهج النقدية وحقها في الحوار والحياة بعيدا عن المصادرة أو محاولة فرض منهج أحادي بزعم لنفسه القدرة المطلقة على حل إشكالات الثقافة المتنوعة... بل إننا للؤمن إضافة إلى ذلك بحق كل ناقد في أن يصطفي لنفسه منهجا نقديا خاصا به. وحقه كذلك في التعامل مع المنهج بشيء من الحرية والتصرف بدل الاستسلام السلبي للمناهج الغربية. وتوظيفها بطريقة الاستنساخ أو التقليد الأعمى لهذه المناهج على علاتها، والذي ينتج عنه التعرض لمخاطر الثقافة السلبية. والتخلي عن الخصوصيات التي تطبع الثقافة العربية الإسلامية.

ولتفادي هذا الأمر يجب أن تكون لنا رؤيتنا الخاصة لهذه المناهج، والتي لا ينبغي أن تقوم على الاستيعاب فقط، بل تقوم على الإضافة الواعية لخصوصياتنا الثقافية والحضارية، وأن تستند إلى نظرية جمالية عربية تنطلق من نظرية فلسفية تستمد روحها من مرجعياتنا الفكرية الخاصة.

وبهذا الشكل نستطيع أن نؤسس لنقد عربي، لأننا في الفترة الحالية نمتلك نقادا ولا نمتلك نقدا عربيا مستقلا عن التبعية للغرب. والاستقلال لا يعني الانعزال، وإنما يعني رفض التبعية، ورفض الخضوع، ورفض الاتكال، وعليه فإننا - قبل أن نؤسس لذلك النقد - ندعو إلى ضرورة الانفتاح على الثقافة الغربية والاستفادة من المناهج الحديثة - التي أحسب أنها أسهمت إسهاما فعالا في سبر أغوار النص الأدبي، وكشف بنيته العميقة - ولكن بطريقة واعية. فنحن لا نستطيع أن نستغني عن الثقافة الغربية المعاصرة مثلما لا نستطيع أن نستغني عن أشياء ومأديات هذه الحضارة، لأن طبيعة الحياة ترفض الجمود، وتدعو إلى الاستفادة من العناصر التي تساعدها على التطور والنماء، وتاريخنا العربي الإسلامي يشهد أن أزهى فترات ازدهار الحضارة الإسلامية هي تلك الفترة التي تمازجت فيها مع الثقافات الأجنبية يونانية، وفارسية، وهندية... إلخ ■